الأجنبي

للكاتب الأمريكي: فرانسيس ستيغملر

كنت سأعود إلى المنزل سيراً على الأقدام حينما خرجت من دار السينما، إلا أن المطر المنهمر من كبد السماء شلالات عاتية قد حرم عليّ ذلك. شقتي كانت قريبة والطريق إليها كان سهلاً ميسّراً، إذ كنت سأصل إلى نهاية الطريق الرئيس فأجتاز شارعين صغيرين لأستدير يمنةً إمّا حاذيت الثالث ويُكْنَى بـ «رو دي غرينيل» على أن الرياح الماطرة قد سارت بما لا تشتهي السفن، فلم يكن أمامي خيار سوى العودة في سيارة أجرة. وهكذا فقد أومأت لإحداها ولم تمض ثانيةً حتى أدركت ـ ويا لسوء ما أدركت ـ بأن سائقها العجوز ذا الوجه الأحمر كان يمر بإحدى حالات النرفزة وسوء الطبع.

ـ كلا كلا... صرخت حينما لاحظت أنه كان على وشك الانعطاف عند أول شارع «رو سانت دومينيك»! ـ وتابعت:

ـ بعد شارعين تفعل!

وتمتم بكلمات لم أفهمها ثم انحرف بعنف عائداً إلى الطريق الرئيسي ثانية على إنه... وبعد هنيهة... انعطف عند الشارع الثاني «رو لاكاسيس».

ـ كلا كلا! صرخت ثانية! أقطن في الشارع التالي... الشارع التالي من فضلك «رو دي غرينيل»!

عند ذلك استدار نحوي وسلقني بنظرة حادة كاد قلبي لها ينخلع، ثم أطلق العنان للسيارة كيما تنهب الأرض غير عابئ بتجاوز الشارع الذي أسكن فيه. وأحسست وأنا أرقبه والسيارة تطوي الأرض بنا في عدَوٍ محموم صوب اللاشيء... بأن ذلك العجوز الأحمق سوف... لن يتوقف أبداً.

ـ لكن... تجاوزت الشارع المطلوب! ـ صحت به ـ كان عليك أن تنعطف يميناً حيث أشرت ـ من فضلك خذ اليمين وتوجه بي صوب منزل ٣٦ «رو دي غرينيل».

ومُلئت رعباً حينما ندّ عن الشيخ الغاضب صوت هو أشبه بالزمجرة... بزئير أُسود أفريقية جائعة ضارية، قبل أن ينعطف بالسيارة بحدة اشتكت الإطارات منها كيما يعود إلى رأس الشارع الذي أقطن فيه ليوقف السيارة فجأة ويصيح بي:

ـ اخرج!... صوته كان مجلجلاً وهو يلقي إليّ بأمره الكريم ووجنتاه تصطبغان بلون الأرجوان... أججّهما الغضب ونفاد الصبر دون ريب ـ غادر سيارتي على الفور... لن آخذك إلى أيّ مكان آخر على الإطلاق!... تعاملت معي كما لو كنتُ مغفلا! مرات ثلاث أهنتني ثلاث مرات... سيارتي ليست مخصصة للأجانب ـ انزل قلت لك!.

ـ في هذا الزخم المنثال من غربال السماء... في هذا الجو المطير؟ صحت به في سخط ـ محال! لن أفعل! لم أُهنك على الإطلاق! تدرك تماماً أني ما زدت على أن رجوتك دون جدوى ـ أن تأخذني إلى منزلي... فهلا تكرمت بذلك... لسوف أعطيك «إكرامية» ينشرح لها فؤادك إن فعلت ـ قلت بودّ وروح أخوية ـ وسنفترق كأفضل ما يكون الرفاق.

وبالكاد تركني أكمل:

ـ انزل فوراً قلت لك ـ أهنتني بما فيه الكفاية وسوف تنزل في الحال! ورميت صوب الشلال المنهمر نظرة جريحة ثم قلت:

ـ لا يمكن أن أنزل ـ محال أن أفعل ذلك! وغشيه ـ فجأة ـ هدوء ما قبل العاصفة:

ـ إما أن تغادر مركبتي ـ قال بنبرات ثابتة يؤطرها صوت أجشّ ـ أو أتجه بك صوب دائرة الشرطة حيث أطالب ببدل إهانة! اختر ما تريد!

ـ في ظل أجواء طارئة كهذه ـ أجبت ـ لا خيار لي سوى انتقاء الاقتراح الثاني! إلى دائرة الشرطة حتماً.

obeikandl.com

وإلى هناك ذهبنا. ولم تكن الدائرة تبعد سوى أبواب قليلةٍ عن مقر سكني وكانت مألوفة لدي، إذ إني كنت أتردد عليها في السابق لأغراض أخرى لا تمت إلى الشجار بِصلِة. وولجت والسائق غرفة مسؤول الأمن كتفاً بكتف، وكان الضابط جالساً في مقعده لا ينازعه في سُلطته أحد، وما أن وقع بصره عليّ حتى حيّاني كرفيق قديم:

ـ طاب مساؤك يا أستاذ ـ قال منادياً إيّاي باسمي هل يمكنني أن أساعدك؟ ما هي حاجتك؟

على أن العجوز الذي لم يحظ من الضابط بأكثر من هزة رأس ما ترك لي مجالاً للرد:

ـ بل إن الحاجة لي ـ صرخ فجأة ـ أرغب في رفع دعوى ضد هذا الأجنبي لقد عاملني كما لو كنت أبلهاً ثلاث مرات ـ أهانني ثلاث مرات... أطلب تحقيق العدالة سيدي، أن يأخذ العدل مجراه.

وحملق ضابط الشرطة فيه... وجهه خلواً من التعابير كان، وأحسست بأنه كان يحاول ـ مثلي ـ تحديد وضعية الرجل العجوز... والتفت عقب ذلك إليّ فرجاني، بلطف أن أتكرّم فأدلي بشهادتي، وامتشق قلماً ثم فتح كتاباً كبيراً خالياً من الكتابة، وفيما كنت أروي ما حدث كانت يده الرشيقة المشعرة تكتب كل شيء، كيف أني أعطيت السائق العنوان... الانحرافين الخاطئين، كلمات التذمر التي تمتم بها... تخطيه شارع سكناي... تصرفاته اللامسؤولة، غضبه الذي لا مبرر له ـ إنذاره لي، وكان الضابط إبان ذلك ينقش كلماتي بخط جميل ويتوقف عن الكتابة أحياناً كيما يرمي إلى السائق ببعض من كلمات اللوم والتأنيب فيقابلها الأخير بهمهمات وتمتمات غامضة. وأنهيت ما طلب إلي الإدلاء به، على أن الضابط استمر في الكتابة بذات الرشاقة والأناقة والتنميق، شاطباً السطر الأخير بالأسلوب ذاته ومزجياً الشكر إلى شخصي المتواضع، واستدار إلى سائق التاكسي فأخبره بأن دوره قد حان وبأن عليه الإدلاء بشهادته كذلك كيما يتسنى له البتّ في تلك المسألة الشائكة.

obeikandl.com

على أنه بدا جلياً أنه ما كان لديه ما يدلي به: «ثلاث مراث» كانت العبارة التي دأب على ترديدها بصوته الأجش الغليظ الغاضب مومئاً للضابط ومحملقا فيّ بغضب في سياق ذلك: ثلاث مرات سيدي... ثلاث مرات تعامل فيها معي كما لو كنت معتوهاً وأهانني ثلاث مرات! هذا الأجنبي... إنه أمر لا يحتمل. ورفع الضابط نظره عن الكتاب الذي دوّن كل ذلك فيه ثم قال له:

ـ ولكن ماذا عن التفاصيل التي ذكرها الأستاذ في شهادته... إن كان قد أخطأ في ذكر شيء منها فصححه ـ قال له، ملقياً إليّ بنظرة اعتذار عابرة.

ومرة أخرى جاء صوت العجوز الأجش: «ثلاث مرات»... تلك كانت كل ما بوسع متّهمي ترديده. فما كان من الضابط إلا أن وضع قلمه على المنضدة بحدّة:

ـ يبدو جلياً يا أستاذ إنك الجهة المتضررة في هذه القضية، يسرني أن أخبرك بأن على هذا السائق أن يقلّك دون مقابل حتى باب منزلك ـ هلا تكرمت فسمحت لي بالاطلاع على أوراقك الشخصية؟ إنه أسلوب متبع في مثل هذه الحالة سننتهي من كل ذلك على الفور. بطاقة الهوية إن سمحت!

وغاص قلبي فجأة كرصاصة ثقيلة إذ إني رأيت بعين عقلي منضدة غرفة مكتبي وبطاقتي ملقاة عليها بعد أن نسيت أن أضعها في جيبي؛ تلك البطاقة التي كان القانون الفرنسي يلزم الأجانب بحملها طوال مدة إقامتهم ـ وأسعفتني فكرة لاحت كبارق أمل:

ـ لقد ارتأيت عدم حملها مخافة أن تبللها الأمطار الشديدة فتطمس ما دُونٍّ بها ـ سأبادر بإحضارها صبيحة غدٍ بإذن الله، كلي رجاء أن يتماشى ذلك مع متطلباتكم القانونية التي أدرك مدى صرامتها وأهميتها.

على أنه يبدو أني قد أتيت محرَّماً، فارتكبت وزراً لا يغتفر وزلة لا تُدمح إذ انقلب كل شيء على عقب:

كلاً لا يتماشى ذلك مع متطلباتنا! قال الضابط بحدة، وحاكى وجهه صلابة الصخر ـ صحيح أنك ستحضر البطاقة صبيحة الغد على أنه وفي ظل الظروف الراهنة فإن عليّ أن أغير ما أصدرته في هذه القضية من حكم ـ عطفاً على الوضع المتمثل في استمرار انهمار المطر فسوف يقلك هذا السائق إلى مسكنك لكنك لن تدفع له أجرة كامل الرحلة فقط بل أنك ستعوضه عن الوقت الذي أهدره معك ـ أفترضُ أيها السيد ـ قال مخاطباً السائق ـ أن العداد مفتوح؟ وهز السائق رأسه فقام الضابط من مكانه وقال دون أن يبتسم: مع السلامة إذاً يا سادة! ولا تنس إحضار البطاقة غداً.

وخرجت والسائق كما دخلنا... جنباً إلى جنب فغادرنا المركز. صحيح أني رأيت وميضاً عابراً في عيني خصمي إبان سماعه الحكم الأخير على أني ما لمحت أياً من إمارات الانتصار... ومضى في نهجه الهادئ اللامتباهي متجهاً بي إلى منزلي دون أن يتفوه ببنت شفة. على أني ما أن نفحته المبلغ كاملاً وعدّه بدقة حتى التفت إليّ فقال: لا بد وأن الأستاذ قد نسي وعده بمنحي بقشيشاً مُعْتَبِراً وبأننا سنفترق كأفضل ما يكون الرفاق!